المرأة
في مرآة الفلاسفة

أ. آمال علاوشيش

أستاذة في قسم الفلسفة/جامعة الجزائر أ

المرأة، الأنثى، الزّوجة، الحبيبة، الرّفيقة و...، كلّها ألقابٌ تطلق على المخلوق ذاته وإن اختلفت المواقع الّتي يحتلّها في دنيا البشر، حيث جعل منها البـــاحثون أو الدّارسون الّذين اختلفت لغاتهم ومللهم وأيديولوجيّاتهم، وذلك في كتاباتهم الأدبيّة أو الاجتماعيّة أو الفلسفيّة على حدّ سواء، موضوعاً حادّاً لنقاشـــاتهم وجـــدالاتهم وسردياتهم منذ الفترة الكلاسيكيّة حتّى المرحلة المعاصرة، مـــع العلـــم أنّ هـــذه الخطابات كانت ذكوريّة بامتياز، وهي المسألة الّتي يُفتـــرض أن تـــثير اســـتفهاماً ومساءلةً كبيرةً وتفتح باباً للنّقاش أكبر، وذلك لسببٍ بسيطٍ هو أنّ تاريخ الفكـــر إنّما كان حتّى الآن تاريخاً متعنّتاً آثماً بحقّها لأنّه كما استبعدها من مجال الممارســـة والعمل، هضمها حقّها في أن تكُون عاملاً منظّراً فاعلاً وفعّالاً في المجتمـــع الّـــذي تعيش فيه، والدّليل أنّ الفلسفة الغربيّة ابتكرها الرّجال وهم من كتب تاريخها. من هذا المنطلق فإنّ التّعاطي مع بعض النّصوص الفلسفيّة بشكلٍ خاصّ، وحده كفيـــلٌ باستجلاء هذا الخطأ الفادح، على اعتبار أنّه بذلك إنّما تسبّب في نبذ نصف المجتمع حتّى لا نقول نصفه الأهمّ. في هذا الإطار سنحاول مناقشة أطروحة إقصاء النّساء من مجال الفكر والإبداع، كما لو كانت المرأة مصابة بقصورٍ بيولوجيّ.

وإذا أردنا أن نكُون موضوعيين وغير متحيّزين، وحتى لا نقع في المثالب الّـــتي وقع فيها الخطاب الذّكوري، لابدّ أن تكون البداية لا محالة تاريخيّة، ولأنّـــه مـــن الصّعوبة بمكانٍ أن نميّز الخيط الرّفيع الّذي يفصل الأدب عن الفلسفة فإنّ الحـــديث

عن المرأة في أحدهما يجرّنا إلى الحديث عنها في الآخر، علماً أنّ المرأة هي الوحيدة الّتي بإمكانها أن تتقمّص دورها في الكتابات الّتي تخصّها وعندما يكون الكاتب رجلاً فإنّه ومهما بلغت عبقريته يظلّ عاجزاً عن ذلك، لكونه لا يستطيع إبراز الصّورة الحقيقيّة لها، والمعنى أن الخطاب الفكري للمرأة يختلف لا محالة عن الخطاب الفكري عنها مهْما بدَا ذلك الخطاب منصفاً وموضوعياً.

إنّ عودةً سريعة للأدب الرّوائي العربيّ والغربيّ على حدّ سواء، تقدّم عديد الصّور عن وضع المرأة في مختلف العصور والأزمنة، حيث نجد لها مساحةً واسعةً في الرّواية الجزائريّة الملتزمة الّتي أبرزت صورتها محاربةً وممرّضةً ومجاهدةً وفدائيّةً وذلك بمقتضى الظّروف الاستعماريّة الغاشمة الّتي فرضها الوضع التّاريخي، إذ سمح لها واقع الحرب التّحريرية بأن تتساوى مع الرّجل في مواجهة الموت كما يبدو ذلك جلياً في عديد الرّوايات مثل "ريح الجنوب" و"جازية والدّراويش" **لعبد الحميد بن هدوقة** (1925–1996).

وفي رواية "نجمة" للرّوائي **كاتب ياسين** (1929–1989) نجد خير تصوير لدورها في الحياة الاجتماعيّة الذّكورية، حيث تمثّل البحث عن البلد والهويّة الضّائعين، بينما تصوّر رواية الرّوائي المغرب **دريس شرايبي** (1926–2007) "الماضي البسيط" le passé simple (1954) وضعها الاضطهاديّ في المجتمع المغربيّ، حيث تجسّد بطلة الرّواية نموذجاً لسلبية أمّ وخضوعها وانكسارها أمام سيطرة رجلٍ ذكر متعنّت، تنتحب أمامه بلا دموعٍ إلى درجة إقدامها على الانتحار، امرأةٌ تمّ اختزال دورها في الوظيفة البيولوجيّة لتعيش تحت تهديد شبح الطّلاق إلى جانب خدمة السيّد (الزّوج)، أضف إلى ذلك خضوعها لسلطة الخرافات الّتي تتمثّل في دعوة الأولياء والصّالحين.

وقفةٌ عاجلةٌ عند بعض روايات **توفيق الحكيم** (1898–1986) مثل: "مصير صرصار" و"المرأة الجديدة" تبرز خطاباً عدائياً صريحاً ضدّ المرأة. هذا الرّوائي الحقوقيّ الّذي اعتبرَها سجّاناً للرّجل منذ كان جنيناً في بطن أمّه، فالمرأة في نظره لا تعرف غير الحبّ بل وخُلقت من أجل أن تمنحه للرّجل لا غير بخاصّةٍ وقد خلقت من ضلعه الأعوج. إنّها كائنٌ تافهٌ مخادعٌ تقوم حياته على الإغراء وجمالها هو سلاحها الّذي تفتك، به وهو في الوقت ذاته يشكّل عذرها الوحيد الّذي يغفر لها حماقتها.

لقد كان **الحكيم** يحبّ المرأة ويخشاها في آنٍ واحدٍ وهو الّذي مُني بإخفاقاتٍ عاطفيّةٍ وعاش في كنف أمّ متعاليةٍ ومتسلّطةٍ، وهي في نظره مخلوقٌ يحبّ أن يستأثر بكلّ شيءٍ ولكنّها شرّ لابدّ منه، بين يديها توجد عبقريّة البناء والهدم معاً، وإن كان يرى فيها مستقبل الرّجل كما ذهب إلى ذلك الشّاعر والرّوائي الفرنسيّ **لوي أراغون *Louis Aragon*** (1897-1982) باعتبارها مصدراً يوحي بالجمال، فإنّه يرفض مساواتها بالرّجل.

إنّ المرأة في نظره تعاني في الواقع من عقدةٍ ترّسبت في أعماق وجدانها منذ أجيالٍ عديدةٍ بفعل التّنشئة الاجتماعيّة القائمة على تفضيل الذّكر على الأنثى[1].

وغير بعيدٍ عن ذلك صوّرتها الرّواية الفرنسيّة بشكلٍ متعنّت، وشخصية **إيما** في"مدام بوفاري Madame Bovary" لـ: **غوستاف فلوبير Flaubert** (1821-1880) - وهو كتابٌ صدر عام 1856 أي في القرن 19 - تُصوّر نموذج المرأة الّتي تربّت في دير أي مدرسةٍ للراهبات، ونحن نعلم أنّ من طبيعة التّربية المقدّمة في مثل هذه الأماكن أن تكون محافظةً إلى أقصى الحدود. **إيما** امرأة تجد نفسها متزوّجةً من طبيبٍ يهيم بحبّها ولكنّه يعجز عن إشباع ما تطمح إليه، بخاصّةٍ عندما تكتشف رداءته في مهنته وفي حياته اليوميّة.

مثل هذه النّظرة السّوداوية الخاطئة والسّلبية للواقع غذّتها مطالعاتها الرّوايات الوعظيّة (à l'eau de rose) وزادتها ضراوةً وقساوةً، فلم تعد ترى في زوجها أيّ أثرٍ لصفات الشّخصيات البطوليّة الّتي كانت تلتهمها بالقراءة، هذه القراءات الّتي جعلتها تقع في أحضان رجلين آخرين راحت تبحث عندهما عن الحبّ المفقود واقعةً بذلك في أسطُورة فارس الأحلام، مما يتسبّب في انتحارها عن طريق تجرّع كميةٍ من السمّ.

هذه الرّواية تسبّبت عند ظهورها - من خلال ما أثارته من جدالٍ - في فضيحةٍ باعتبارها تسيء للعادات والأخلاق الحسنة القائمة، إلى درجة أنْ تعرّض صاحبها للمحاكمة نظراً لتناوله مسائل كانت تحسبُ في عداد المقدّسات، فهو يتناول قضيّة الزّنا ووضع المرأة، بخاصّة وأن المرأة البرجوازيّة وقتها كانت أسيرة

---

1 الرشيد بوشعير، المرأة في أدب توفيق الحكيم، (دمشق: دار الأهالي، 1996)، ط1، ص 56.

العائلة والرّقابة الذّكورية وكأنّها قاصرة إلى الأبد، فهي تابعة للأب ثم للزّوج خاصّة بالتّضييق الّذي زاده قانون **نابليون** من حرّيتها، وهي لا تملك أيّ حقّ مدنيّ أو سياسيّ وتحت وصاية الزّوج في كلّ شيء، مع العلم أنّ الكنيسة قد لعبت دوراً لا يستهان به في تكريس هذا الوضع، فكان من المسلّمات عندها أنّ العائلة والعقيدة هما المحوران الرّئيسيان للمجتمع، وبالتّالي فإنّ الاتّحاد خارج إطار الزّواج له هدفٌ حسّي جسدي محض ينبغي إدانته. لقد وُجدت المرأة للإنجاب في إطار أسرةٍ وزواجٍ شرعيّ ليس له أن يحقّق متعةً جسديّةً، وعليها أن تهتم بالمنزل وبتربيّة الأبناء وأفعال الخير والإحسان.

الرّواية وضعت النّظام موضع مساءلةٍ، فهي تتعرّض للزّنا وهو سلوكٌ يستهجنه القانون والمجتمع ويتّهمانه، وبالتّالي تشكّك في مؤسّسة الزّواج بخاصّةٍ وأنّه يتحدّث عن امرأةٍ عجزت عن التّقولب مع نمطٍ اجتماعيّ برجوازيّ محدّد، وراحت تبحث عن معنى آخر لوجُودها ولتحقيق فرديتها المفقودة وكأنها بتصرّفاتها تحاول أن تصارع الأحكام الاجتماعيّة المسبقة وغير المؤسّسة. لقد كانت تعاني أزمة هويّة خلقها المجتمع بتربيةٍ معيّنةٍ جعلتها تتقبّل الزّواج باعتباره ضغطاً اجتماعياً وحالة استعبادٍ لا غير.

إنّه التّوصيف الّذي يتكرّر في عديد الرّوايات كما هو الشّأن عند **جي دي موباسان Maupassant** (1850- 1893) في" Boule de suif "(1879). هذه القصّة المستوحاة من الواقع تصوّر نموذجاً لامرأةٍ عاهر تمتلك من الإنسانيّة والقيم ما لا تملكه المرأة البرجوازيّة، فتضحّي بكلّ ما تملك لتنقذ ركّاب عربةٍ من العدوّ، أشخاصاً يحتقرونها جميعهم وهم في حقيقة الأمر لا يتمتّعون بأدنى قدرٍ من إحساسها المفرط، والمعنى أنّ إدانة الآخر مهما كان ما يبدو من مظهره ليست سلوكاً أخلاقياً أو حضارياً على الإطلاق.

إنّ مثل هذه المواقف إنّما تجد سنداً وتفسيراً لها في ثقل التّقاليد اليهوديّة المسيحيّة الّتي امتزجت بالأرسطوطاليسيّة في المرحلة الكلاسيكيّة وأيضاً في العصور الوسطى، والّتي اعتبرت أنّ المرأة تجسيد للشرّ والخطيئة والشّياطين، فلم تكن الآراء حولها بذلك سوى صدى لفلسفاتٍ وعقائد أسّسها رجالٌ واحتكروها على مدى التاريخ، وهي تعكس وضعاً من اللاّمساواة والدّونية.

لقد اعتبرها الفكر الغربيّ مرادفاً لمفهوم السّقوط (La chute) والخطيئة (Le pêcher) الّذي كانت حوّاء موضوعه، لأنّها هي من سوّلت لآدم عصيان الأمر الإلهيّ بالأكل من الشّجرة المنهيّ عنها، ومنحها من خلال ذلك صورةً مريعةً فهي المذْنبة والمثيرة للشّفقة، بخاصّةٍ وأنّ آدم خُلق قبلها وهو ما يفسّر مركزيته إلى جانب هامشيتها، وقد خُلقت من ضلعه الأعوج الّذي أُخذ من جسده باعتباره أصل الخلق وبدايته، وبذلك استحالت حوّاء بجسدها مائناً ملعوناً، بدايةً من نظام الخلق إلى مسئوليتها في ارتكاب الخطيئة، إنّها أنثى الإغراء والغواية.

إنّ التّوصيف الّذي يقدّمه **Hoffmann** يعرض بما يكفي آراءً فلسفيّةً جعلت من المرأة جسداً قاصراً ونظرت إليها نظرةً فيزيولوجيّةً محضة، وجعلتها تحت وصاية الرّجل باعتبارها مجرّد جسم، وهي لذلك في مصافّ اللاّعقل والقوّة العجماء، وتمّ بالتّالي خلق وضعٍ قانونيّ كرّس ضعفها وحرمها من الوظائف العامّة، جاعلاً منها كائناً قاصراً ومعاقاً بصفةٍ مصطنعةٍ. والمعنى هو الانتقال من احتقار المرأة أخلاقياً إلى استغلالها جسدياً كما فعل الخطاب العلميّ. وضعٌ جعلها تتّجه إلى البحث عن عزاءٍ داخليّ بوصفه أنسب ملاذٍ.

في القرن الثّامن عشر ومع بروز الأنوار ظهر فلاسفة راحوا ينادُون بالمساواة الفكريّة بينها وبين الرّجل أمثال هلفسيوس **Helvétius** (1715-1771)، وفي حوالي عام 1790 رأى **كوندورسيه Condorcet** (1743-1794) في مقالٍ له بدعم الحقوق السّياسية للمرأة وهو ما تسبّب في ضجةٍ كبيرةٍ[1]. وغير بعيدٍ عن ذلك اعتُبر **جون ستيوارت مل Mill** (1806-1873) منصِفاً ونصيراً ليبرالياً قوياً لها، حيث دعا إلى المساواة بينها وبين الرّجل باعتبارها لا تقلّ عنه في شيء وقد أفرد لذلك كتاباً خاصّاً لمناقشة قضيّتها أسماه "استعباد النّساء"، وأعلن فيه صراحةً عن آرائه وإدانته لطبيعة القوانين السّائدة الّتي كانت تنظّم العلاقات بين الجنسين، وكذلك الصّعوبة الّتي تكتنف مثل هذه المسائل.

هذا الموقف وجد له نصيراً آخر هو الإنجليزيّ **برتراند راسل B. Russell** (1872-1970) الّذي اعتبر أنّ التطوّر الحاصل في الأسرة من الشّكل الأموي إلى

1 paul Hoffmann. l'héritage des lumières: mythes et modèles de la féminité au 18ème siècle. In: Romantisme, 1976(n° 13 -14), pp (5-22).

الشّكل الأبوي، يعدّ السّبب المباشر في عبودية النّساء حيث صرن يخضعن للرّجل جسدياً وعقلياً، ويعشن في غباء مصطنع إلى درجة أنّ انصياعهنّ أثناء القيان بوظائفهن الزّوجية أصبح واجباً محتوماً[1]، هذا الوضع الّذي بدأ يتغيّر مع بزوغ حركة التّحرر في أوروبّا حينما خرجت المرأة للعمل وحصلت على حقّ الانتخاب. والمعنى أنّ **راسل** يقرّ بمساواة المرأة بالرّجل إلى درجة أنّه كثيراً ما نادى بالحرّية العاطفيّة والجنسيّة لهما بقدرٍ متساوي، وهو الأمر الّذي جلب له استهجاناً وجرّ عليه سخطاً اجتماعياً كبيراً.

بالإضافة إلى ما تقدّم، حظيت المرأة عند **لامارتين Lamartine** (1790-1869) في قصيدة "البحيرة" (Le lac) الشّهيرة حين يستخدمها كمرآةٍ لروحه، وعند **فيكتور هوجو Hugo** (1802-1885) في مختلف مؤلّفاته بخاصّةٍ "التأملات" عندما يشبّه المرأة بالبحيرة والبلبل الّذي يغرّد فيحكُم القلوب، وكذلك **ألفريد دي موسيه Musset** (1810-1857) ورواد الحركة الرّومانسية على العموم بالإعجاب والتّبجيل، فهي ذلك الكائن الموقّر والمحتفى به.

وقفةٌ سريعةٌ على ملحمة **جلجامش** أو "أوديسا العراق القديم" كما يسمّيها الكثيرون، تبرز كيف أنّ الأنثى هي أبداً أنثى الضّفاف العابرة بالرّجل من التوحّش إلى المدنيّة، تعمل على أنسنته وترويضه وتدجين قواه[2]، ولنا في النّص القرآني أكبر مدافعٍ وحافظٍ للمرأة والأنثى على حدّ سواء، حيث ارتفع بها إنسانياً وجسدياً وأخلاقياً وجعلها شقيقة الرّجل. إلى جانب ذلك لدينا في **شهرزاد** "ألف ليلة وليلة" في العصر الوسيط باعتباره عملاً نسوياً نموذجاً آخر، فشهرزاد الّتي نلمس فيها بعداً موسوعياً، أجهدت نفسها لتجعل من **شهريار** ملكاً مثقّفاً عاشقاً مناصراً للمرأة وفيلسوفاً[3] بعد أن كان متوحّشاً بربرياً، وعلّمته كيف يحكم بدلاً عن كيف يسيطر ويقمع، وقد كانت من خلال رواياتها تدوّن ملحمة الحضارة، وهي امرأة في مجتمعٍ

---

1 برتراند راسل، الزّواج والأخلاق، ترجمة: ترجمة: عبد العزيز إبراهيم فهمي، (القاهرة: دار الهناء، 1957)، ط1، ص 26.

2 أمينة غصن، نقد المسكوت عنه في خطاب المرأة والجسد والثّقافة، (دمشق: دار المدى، 2002)، ط 1، ص 25.

3 Ibid، ص 37.

يُنكر على المرأة حقّها في المعرفة والتأمّل والإبداع، ممّا يبيّن أن قضيّة "حقوق المرأة" إنّما هي مجرّد خدعةٍ ابتكرها القرن التّاسع عشر، لأنّ المرأة شكّلت محور الفلكلور والأدب الشّعبي بحيث غدت ذاكرة الأمم في مختلف الحضارات[1].

إنّ الضّغط الاجتماعيّ والتسلّط الذّكوري كما ترى **زينب فوّاز** (1860-1914) في كتابها "الدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور"، جعل المرأة ترى ذاتها وحياتها بمنظور الرّجل وأفكاره، لأنّه ألغى إرادتها واختيارها وباتت لا تعرف نفسها إلاّ من خلاله، وتلك حالةٌ يطلق عليها علم النّفس المعاصر تسمية "التّماهي بالسّلطة"، حينما يرى المقهور ذاته وكيانه بعين قاهره[2]، والمطلوب هو أن ترفض سلطة النّموذج حتّى لا تظلّ مجرّد ملحق لإنسان.

نظرة الاحتقار والازدراء الّتي سبقت نجدها لدى فلاسفة اليونان **أفلاطون** (427-347) ق. م و**أرسطو** (384-322) ق. م، وبرغم وجود نساءٍ فيلسوفات أمثال **ديوتيما** معلّمة **سقراط** و**اسباسيا** الّتي ذكرها **أفلاطون** في محاوراته وكان من الّذين يرتادون صالونها، وكذلك **أولمبياس** زوجة الملك **فيليب المقدوني** ووالدة **الإسكندر الأكبر**[3] وغيرهنّ، إلاّ أنّه تمّ تجاهلهن ومناهضتهن بشكلٍ متعمّدٍ والأغلب أنّ السبّب إنّما يرجع إلى تلك النّظرة السّائدة من قبل والّتي كانت تعتبر المرأة ملكيّةً خاصّةً تستغلّ وتُحفظ فتكبّل تحت غطاءاتٍ تختلف في دلالاتها من حضارةٍ إلى أخرى، ولعلّ أهمّها وضع الحجْب والحريم الّذي ألحقها بمتاع الرّجل وجعلها مجرّد تابعٍ خاضعٍ مطيعٍ محض، أو وضع الاسترجال كالّذي عرفته المرأة الإسبرطيّة. والوضعٌ الأوّل له جذوره في ثقافتنا العربيّة الّتي نحتاج إلى استنطاق المسكوت عنه فيها بسبب الهيمنة الذّكورية الممارسة حتّى نستخرج المكبوت في الوعي، هذه الهيمنة الّتي تمارس عنفاً رمزياً ناعماً ولا مرئياً بلغة السوسيولوجيّ الفرنسي **بيار بورديو *Bourdieu*** (1930-2002).

لقد كانت هناك نغمة كراهيّةٍ قويّة وواضحةٍ في الأدب اليونانيّ منذ **هيزيود** و**هوميروس**، والآلهات ذاتها لا تصلح لغير الأمور المنزليّة وأعمال الغزل والنّسيج،

---

1 Ibid، ص 39.

2 Ibid، ص 54.

3 إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996)، ط 2، ص 8.

إلى جانب أداء وظائف تتعلّق بالرّجل أساساً وبراحته ومتعته، وكانت الفتاة اليونانية تباع في الأسواق لتلحق بحياة البغاء أو العبوديّة، ومن الغريب أن يستبعد **أفلاطون** المرأة من كلّ الميادين عدا طبقة الحرّاس حيث يسوّيها بالرّجل، وهي في هذا المجال مثله تماماً وتقف معه على قدم المساواة، وهي مصدرٌ لإنجاب الذّكور الأصحّاء لا غير.

وفي الكتاب الخامس من "الجمهوريّة" بالتّحديد يعتبرها حارسةً أي جنديةً، أنثى لكلب الحراسة الذّكَر تسهر على حماية القطيع مثله تماماً، ولذلك فهي "تُعامل نفس معاملة الرّجال"[1]، وبالتّالي فإنّ تدريبها من النّاحية البدنيّة ضرورة لا فكاك منها، كما ينبغي تدريبها على ركُوب الخيل وحمل السّلاح، وتربيتها موسيقياً وذهنياً، ولعلّنا في هذا نلمس نوعاً من المساواة بينها وبين الذّكر إلاّ أنّ الأمر ليس كذلك في واقع الأمر. "إنّها بطبيعتها قادرةٌ على كلّ الوظائف وكذلك الرّجل، وإن تكن في كلّ شيءٍ أدنى قدرةً منه "[2] أي تتمتّع بفاعليّة أقّل، على الرّغم من أنّه يقرّ باختلاف طبيعة الجنسين..! وما نعنيه هو أنّه إنّما عمل على تحوير طبيعتها خاصّةً عندما ألغى الأسرة، الأمر الّذي جعله مضطرّاً لأن يجعل منها رجلاً، وفي هذا السّياق لا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال أن يكون **أفلاطون** ممّن ناصروا المرأة أو نادوا بتحريرها.

إنّ المرأة الأنثى في نظر **أفلاطون** مشاعةٌ وكذلك أبناؤها، والزّيجات إنّما يسهر الحكّام على تنظيمها لنحصل على نسلٍ ممتازٍ حفاظاً على أصالة القطيع، بل وينبغي أن يكافأ الجنود الأكفّاء بزيجاتٍ أكثر، وكأنّ الأنثى بذلك قطعة سكّر يكافَئ بها الطّفل الصّغير حين يأتمر لأمرنا، هل هناك من احتقارٍ أو ازدراءٍ أكبر من ذلك..؟؟

غير بعيدٍ عن رأي أستاذه، يتّجه **أرسطو** إلى اعتبار انحطاط المرأة وتفوّق الرّجل عليها وبالتّالي تسلّطه وانقيادها، فرقاً طبيعيّاً[3]، ومن الجليّ أنّها نظرةٌ

---

1 أفلاطون، الجمهورية، ترجمة: فؤاد زكريا، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 1984)، فقرة 452، ص 247.

2 Ibid، فقرة 455، ص 352.

3 أرسطو، في السياسة، ترجمة: الأب أغسطين بربارة البولسي، (بيروت: اللّجنة الدولية لترجمة الرّوائع، 1980)، الباب1، الفصل2، فقر12، ص 15.

أنطولوجيّة دونيّةٌ خالصة. إنّ المرأة في اعتقاده هي مجرّد وعاءٍ سالب، فالأصل في تكوين المولود هو النّطفة أي الحيوان المنويّ أو بذرة الرّجل، في حين لا تعتبر الأنثى إلاّ وعاءً مستقبلاً لا غير تمنحه الشّكل دُون المضمون بما توفرّه من مادّة غذائية.

إنّها من الرّجل كالسيّد من العبد بل وأقلّ، فهي ناقصةٌ وتقف في أدنى المراتب حيث تقترب من الطّفل أو الغلام وكذلك الحيوان، وأفضل مكانٍ لها هو الحياة البيتيّة الهادئة الّتي تملك من خلالها السّيادة المنزليّة في حين يتحكّم الرّجل في شؤونه الخارجيّة وكذلك في شؤونها، والمعنى زيادة الفوارق بينهما. إنّ شجاعتها إنّما تكمن في مجرّد الانقياد أي الطّاعة لقيادة رجلٍ أي ذكر، لأنّ جنس الذّكور أصلح للرّئاسة من جنس الإناث ما لم يكن فاسد التّركيب أو مخالفاً للطّبيعة[1]، فالرّجل يتمتّع بنسبة ذكاءٍ أعلى وعلاقته بأنثاه هي علاقة تبعيّة (subordination) شبيهةٌ بعلاقاته بخدَمه وأنعامه أي حيواناته المنزليّة الّتي يملك والّتي تزوّده باليد العاملة أي بالجهد العضلي الّذي يستنكف عن بذله، وهو بهذا يظلّ وفياً لمنطلقه الفلسفيّ من أنّ من النّاس بالطّبيعة من هو مؤهّل للسيادة أو القيادة بينما البعض مؤهّل للعبوديّة والطّاعة، وممّا لا شكّ فيه بناءً على ما تقدّم أن المرأة تنتمي إلى الصّنف الثّاني وهو الرأي الّذي سينحدر إلى المسيحيين في العصر الوسيط.

في هذا السّياق تجدر الإشارة إلى أنّ هذا التّفاوت إنّما أساسه تلك النّظر الاستعلائية الّتي كانت لفلاسفة اليونان عموماً، حينما اعتبروا أنّ كلّ ما عدا اليونانيين برابرة وعبيد لا يرتقون إلى مرتبة الحضارة.

أمّا **ج. ج. روسو** (1712–1788) في مؤلّفه "إميل" **Emile** وتحديداً في الكتاب الخامس الموسوم: "صوفيا أو المرأة"، فقد عمل على توصيف وضع المرأة في الأسرة والمجتمع مختصراً دورها في الوظيفة البيولوجيّة داخل الأسرة وفي السّهر على الرّضاعة الطّبيعية وتعليم الأبناء، إذ ليس لها أن تغامر في نشاطات خارج المنزل، مؤكّداً في الوقت ذاته على قدرةٍ أكبر من الاستقلال والحكم الذّاتي للأطفال الذّكور في الشّؤون العامّة.

---

1 Ibid، فصل5، فقرة1، ص 37.

والمعنى أنّها – المرأة – تنتمي إلى المجال الخاصّ أي المجال المنـــزليّ وليس العامّ، فلا دور لها في الشؤون العامة وبالتّالي لا تحتاج إلى أيّ إعدادٍ فكريّ. لقد كان هذا الفيلسوف وفيّاً لمرجعيّته إلى الطّبيعة وهو ما ينعكس بجلاءٍ علـــى جميـــع آرائـــه، واختلاف الجنس يفرض اختلافاً في التّربية لا محالة، فصُوفي هي امـــرأةٌ متواضـــعة الجمال ولكنّها ذات فكرٍ لامعٍ قبل كلّ شيء[1]، وهي مخلوقٌ مستســـلمٌ، جـــزعٌ، خجولٌ، متحفّظ وزاهد، والمعنى يبدو واضحاً لأنّ هذه الصّـــفات تجعـــل منـــها موضوعاً منفعلاً وليس فاعلاً مما يتيح سيطرة الرّجل بشكلٍ طبيعيّ، وهو يقتـــرب بذلك من **أرسطو** في اعتبار أنّ الأنثى إنّما تقدّم مادّة العمل في عمليـــة التّناســـل، وبالتّالي انفراد مبدأ الذّكورة بالفعل من خلال بذرة الرّجل الّتي تعدّ بمثابة الـــرّوح العاملة. سيطرة سيحقّقها الرّجل في الحياة الاجتماعيّة أيضاً.

لقد خلقت المرأة بشكلٍ خاصّ لتنال إعجاب الرّجـــل، ولـــيس بالضّـــرورة المباشرة أن ينال إعجابها لأنّ قوّته وحدها كفيلةٌ بذلك، وبالتّالي فإنّ قانون الطّبيعة يستبق الحبّ ذاته[2]، علماً أنّ ضعف المرأة ليس عيباً لأنّها تجيـــد اســـتخدام هـــذه الصّفة، وهي تمارس سيطرةً مستترةً غير مكشوفةٍ، عندما تستثير غرائـــز الرّجـــل ورغباته فيصير تابعاً لها منقاداً برغم إرادته، وهي في الآن ذاته تحافظ على شـــعوره بالقوّة[3].

هذه الطّبيعة الّتي تتميّز بها المرأة تفرض إخضاعها إلى تربيّة موجّهةٍ وصـــارمةٍ، فتنبغي المحافظة على عفّتها وفضيلتها وملكة الحكم لديها باعتبارها العنصر الـــرّئيس في بناء الأسرة، فهي من ينجب ومن يربّي أيضاً وعليها أن تدرك كيـــف تجعـــل الرّجل يعي دوره ومسئوليته فيها.

إنّ المرأة عند **روسو** لا ينبغي أن تكون جاهلةً ولكنّ الزّوج هو من يعلّمها ما هي بحاجةٍ إليه، وليس لها أن تبدي رأياً في قضايا عصرها ومشاكله على الإطـــلاق لأنّ ذلك غير محبّذٍ في المجتمع، فهي تملك فكراً ولكنّ الرّجل يملك عبقريّـــة، إنّهـــا

---

1 Rousseau. Emile ou de l'Education, in œuvres complètes, (Paris: Editions Gallimard, 1969), p. 746.

2 Ibid, p. 692.

3 Ibid, p. 695.

تلاحظ والرّجل يفكّر، وكأنّها تكمّل ما ينقصه[1]، والمعنى أن تظلّ تحت وصايته ولا تخرج عنها فتخضع بذلك لرقابته حتّى يستقيم سلُوكها ووجهتها، وهو بذلك مكلّف أيضاً بتربيتها دينياً أو عقائدياً.

ولأنّ المرأة مخلوقٌ وُجدت لتنال إعجاب الرّجل فإنّ التّربية في الطّفولة ينبغي أن تعمل على إيقاظ الأنثى النّائمة فيها حتّى تضطلع بدورها كما يجب في المستقبل، وذلك من خلال تربية ثقافيّة وجماليّة تتعلّم من خلالها طريقة اللّباس والتزيّن وتسريح الشّعر بما يتناسب والمواقع الاجتماعيّة المختلفة، وكذلك كيف تكُون أمّاً وطبّاخة وخيّاطة. هذه الأعباء في نظر **روسو** تتناسب جميعها مع طبيعتها الأنثويّة وهو ما نلمسه في إقبال الفتاة الصّغيرة عليها دُون إعياء أو تذمّر[2]. وممّا يضمن سلامة التّربية وفاعليتها أن تعلّم المرأة الطّاعة والمحافظة على التّقاليد.

يتّضح ممّا سلف أنّ **روسو** يقرّ بالتفوّق المطلق للرّجل على المرأة، وهو ما من شأنه أن يسيء إلى العلاقة بينهما في الأساس، حيث لا يوجد إنسان كامل ذكراً كان أو أنثى، ولا يمكن للمرأة أن تخضع للرّجل بشكلٍ أعمى وإلاّ كانت العلاقة الناشئة بينهما قائمةٌ على الكذب والتّمويه، والمعنى هو تعاونهما وتكاملهما، ولعلّ في ما عرفته العصور اللاّحقة من تحرّر ومساواةٍ ما يكفي للتّدليل على أنّ المرأة لم تبقى كائناً من الدّرجة الثّانية.

أمّا عن **نيتشه** فيلسوف القوة والإنسان المتفوّق، الّذي دعا إلى ضرورة أن يتفوّق الإنسان على إنسانيته عن طريق مجاهدة العادات والتّقاليد والقيم المتوارثة، فإنّه يقع هو نفسه فريسة هذه الأخيرة من خلال تلك المفاهيم الجائرة الّتي سجنت المرأة داخل شبكةٍ مذلّةٍ متدنّية.

ومن الملاحظ أن هناك كراهية مستشرية في مؤلّفاته تجاه المرأة، بل إنّ الحياة ذاتها في نظره تُعتبر امرأةً مثعلبة لا فضيلة لها، فهي المواربة والشكوكيّة الّتي بلغت حداً من العدائيّة نعتقد أنّه يعبّر في حقيقته عن أقصى درجات العشق العصيّ على التحقّق، هذا العشق الّذي يستحيل إلى كراهيةٍ وانتقام، وهو ما يرجع إلى ما مُني به الفيلسوف من إخفاقاتٍ في حياته العاطفيّة، فقد فضلت الشّابّة **كوزيما** الفنان

---

1 Ibid, p. 737.

2 Ibid, p. 706.

الموسيقار **ريتشارد فاغنر** (1813–1883) عليه، كما فضّلت المرأة الرّوسية اليهوديّة المثقّفة **لوسالومي** (1861–1937) الشاعر **ريلكه Rilke** (1875–1926)، ممّا جعله يصبّ جامّ غضبه على النّساء قاطبةً، محاولاً الاقتصاص منهنّ بازدرائهن بصُورةٍ مبالغٍ فيها، وهو الّذي كان قارئاً **لشوبنهاور** (1788–1860) عدوّ المرأة الأوّل الّذي وصل إلى حدّ الحقد على والدته الّتي كانت صديقة غوته (1749–1832).

يقول **نيتشه**: لقد مرّت أحقاب كثيرة على المرأة كانت فيها مستبدّة أو مستعبدة فهي لم تزل غير أهلٍ للصّداقة، وهي لا تعرف غير الحبّ. إنّ حبّها ينطوي على تعسّفٍ وعمايةٍ تجاه من لا تحبّ، وإذا ما اشتعل بالحبّ قلبها فإنّ أنواره معرضة أبداً لخطف البروق في الظّلام.. لم تبلغ المرأة بعد ما يؤهّلها للوفاء كصديقةٍ، فما هي إلاّ هرّة، وقد تكُون عصفوراً، وإذا هي ارتقت أصبحت بقرة... هي ليست أهلاً للصّداقة[1].

مع **نيتشه** نبلغ أقصى تحقيرٍ واستصغارٍ للمرأة، فهي شيطانٌ وآلةٌ جنسيّة لتحقيق متعة الرّجل لا غير. وهي مخلوقٌ عبوديّ وليس حرّ الإرادة والأفعال. إنّها دابّة لا تخضع إلاّ بضربات السّياط، بينما هي في الواقع نصف المجتمع وإهمالها يعني الدّعوة إلى إقامة مجتمعٍ أعرج. واتّجاه المرأة إلى الدّين في نظره إنّما هو نوعٌ من التّعويض وليس حبّاً روحيّاً، نظراً لأنّها لا تستطيع أن تحقق حاجاتها الجنسيّة أو الأيروسيّة، وهنا نلمس تطرّفاً نيتشوياً جلياً من حيث ربط التديّن الأنثويّ بالعجز عن الإشباع الجنسيّ.

إنّ سبب إخفاق **نيتشه** في غرامياته جعله ينقم على كلّ النّساء حيث تركت فيه تلك الخيبات جرُوحاً عميقةً لا يمحُوها الزّمن، وهو وضعٌ نفسيّ يشترك فيه أغلب الرّجال ممّن أصيبُوا بانتكاساتٍ عاطفيّةٍ، إلاّ أنّها لا تعدّ قاعدةً عامّةً بدليل **أفلاطون** الّذي لم يتزوّج ومع ذلك كانت نظرته عن المرأة بالغة السّوء، و**أرسطو** الّذي برغم زواجه مرّتين اعتبرها كائناً ناقصاً.

إنّ المقاربة الّتي نحاول تقديمها في هذه الورقة تندرج في إطار إعادة الاعتبار للمرأة، باعتبارها مخلوقاً مكتمل النّمو، ولذلك توجّهت عنايتنا إلى إقامة حوارٍ

1 فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت. ترجمة: فليكس فارس، (بيروت: دار القلم، د. ت)، ص 38.

هادفٍ مع جملةٍ من النّصوص الرّوائية والفلسفيّة المتعسّفة حيناً، والمنصفة حيناً آخر، بغرض استجلاء المواقف المختلفة وتحليلها في الوقت ذاته، وذلك حتّى نستجلي ونستوضح الأسباب الحقيقيّة الكامنة وراء تهميش دورها وإقصاء مكانتها في مجال الفكر والإبداع.

ويتّضح ممّا تقدّم أنّ غالبية الفلاسفة ومثلهم الأدباء، شنوا هجوماً على المرأة وتعنيفاً كبيرين، وليس غرضنا من وراء هذا العمل القيام بمسح لآرائهم إنّما التطرّق لنماذج طبعت الفكر الإنسانيّ في الشّرق والغرب على حدّ سواء. إنّ الواقع العربيّ المعيش يؤكّد أنّ هناك جزءاً لا واعياً من تراثنا وثقافتنا ينبغي معالجته، لأنّه المصدر الّذي تتولّد منه مخاوفنا من المرأة/الأنثى، الّتي جعلت منها وسائل الإعلام والدّعاية والخطابات الإسلاموية رغم اختلافهما في الغاية، مصدراً للرّذيلة والمحن والغواية والدّنس، فهي المقدّس والسّلعة في آنٍ واحد، تدخل في دائرة المنبوذ والمقصيّ والمشتهى المحبّذ في وقتٍ واحد، ويا له من واقع...!

في حقيقة الأمر هناك أسباباً أو عوامل عدّة ساعدت على تكريس دونية المرأة، من بينها اعتمادها اقتصادياً على الرّجل وحالة الجهل الّتي كانت تعيشها، إلى جانب سيطرة الخرافة وأساليب الشّعوذة على عقليتها حيث استبطنتها مجموعة من القيم والأفكار الذّكورية، فاعتبرت ملكاً للرّجل واختُزل دورها في "المرأة الأم"، والمطلوب لتغيير الوضع – كما أشرنا إلى ذلك سابقاً – أن نعمل على زحزحة جبال من الموروث الثّقافي والاجتماعيّ المتآكل بخاصّةٍ وأنّ المرأة قد اقتحمت الفضاء العامّ الّذي كان فيما مضى حكراً على الرّجل وحده، فالذّكورة والأنوثة هما في الواقع مفهومان متجاذبان ويتحرّكان داخل النّظم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثّقافية، ورغم الأولوية أو الأفضليّة الّتي مُنح إيّاها الجسد الذّكوري في العقائد المختلفة وعلى رأسها اليّهوديّة والإسلامية من حيث الوجود باعتبار أنّ حوّاء جاءت منه، إلاّ أنّ هذا لا يُعدّ مبرّراً منطقياً معقولاً لتبنّي نظرةٍ إقصائيّةٍ تهميشيّةٍ تجاهها، وربط ذلك بقصورها البيولوجيّ والنّفسي وكذلك العقليّ.

لقد أثبتت التّجربة أنّ قضايا المرأة لا يمكن أن تحلّ بمعزلٍ عن الرّجل، عن تطوره الفكريّ وإنفتاحه وتبنّيه مبادئ الديموقراطيّة والعدل الاجتماعيّ، ومن هذا المنطلق من الضّروري على وجه الإطلاق ألاّ يُنظر إلى قضية مساواة المرأة للرّجل

داخل المجتمع من زاوية أنّها معركة بين الجنسين، بل ببساطةٍ متناهيةٍ على أنّها تعبّر عن منظومة حقوقٍ مشروعةٍ يمكن للمرأة أن تحصل عليها بأساليب متحضّرةٍ يكفلها لها التطوّر العلميّ والثّقافي داخل المجتمع وبخاصّةٍ تطوّر الذّهنيات والعقليات، ففي خضمّ التّكنولوجيا الرّقمية الّتي أبدعها القرن الواحد والعشرون والّتي نعيش في ظلّها، لا يزال هناك من يعتقد أنّ إنجاب الإناث وحدها المرأة مسئولة عنه، ذلك الإرث الأرسطي القديم الّذي تسرّب إلينا واستوطن أفكارنا وقناعاتنا.

إن معيار القوة الجسديّة الّذي كان يميز الرّجل عن المرأة، قد فقد مفعوله جرّاء كثيرٍ من المتغيّرات الحضاريّة، ذلك أن ثمة قوى أخرى عقليّة وإبداعيّة تلعب دورها في أخذ الأدوار داخل الأسرة والمجتمع والدّولة، ولا تكترث لجنس مبدعها ذكراً كان أم أنثى. ومنه فإنّ هيمنة العقلية الرّجولية أو بالأحرى الذّكورية، هي المسئول عن خلق تلك الفجوة بين الحقوق القانونيّة والممارسات الاجتماعيّة، والمعنى أنّه لا بدّ من تغيير وإعادة النّظر في تمثّلاتنا وتصوّراتنا حول المرأة، وحده هذا الحلّ يعدّ المدخل الرّئيسي والحقيقيّ للحداثة المجتمعيّة الّتي يتشدّق بها مثقفونا، لأنّ العامل الّذي ينبغي أخذه في الحسبان هو الإنسان، والمرأة بشكلٍ خاصّ لاعتبارها نصف المجتمع، بل ونصفه الأهمّ.